الحرب وأزمة الغذاء بالمغرب الأوسط الزياني

أ. خليلي بختة

التخصص: التاريخ الوسيط - تاريخ وحضارة

جامعة معسكر

الملخص : قد لا نبالغ إن قلنا أن الحروب والأزمات الاقتصادية تبادلت الأدوار لتعصف وتؤثر بإنسان المغرب الوسيطي، لما ألحقته من ضرر بالكائنة والساكنة في أي زمان ومكان، كالمجاعات والأوبئة والأمراض وغلاء الأسعار وتدني المستوى المعيشي للفرد الزياني، وعموما فقد أضرت حروب وغارات العصر الوسيط بالمجال الفلاحي، وقلصت من مردود يته بفعل نهب الأنعام وإحراق المحاربين للمحاصيل الزراعية، وتخريبهم للحقول.

ولاشك أن دورية هذه الأوضاع، واستمرارها أفضت إلى تقلص المساحات المزروعة، وهذا نتج عنه انحطاط اقتصادي شامل نظرا لقلة الإنتاج مما سبب أزمات غذائية شديدة الوقع على أفراد مجتمع المغرب الأوسط. الأمر الذي أدى إلى تراجع في النشاط الزراعي والرعوي، لان الفلاحين مهددون بالجوع والإفلاس في أي لحظة يمر بهم الجيش ويتلف محصولهم، عندئذ يصابون بالجوع ونقص الغذاء ويجدون أنفسهم عاجزين عن دفع ما عليهم من كراء أو ضرائب.

الكلمات المفتاحية / المغرب الاوسط ، الحرب ، الغداء

Abstract

May not be an exaggeration if we say that wars and economic crises swapped roles for rocking and influence by man Morocco catalysed, what inflicted damage Eaúna and static in anytime, anywhere, such as famine, epidemics and diseases, high prices and low quality of life Zayani, generally wars and raids medieval have harmed the domain of agricultural, and trimmed payoff of Lete by looting cattle and burning of veterans of agricultural crops, and vandalizing of fields .

There is no doubt that the periodicity of these conditions, and persistence led to reduced plantings and this has resulted in a comprehensive economic degeneration due to lack of production, causing a severe impact on the members of the community Morocco East food crises. Which led to a decline in the agricultural and pastoral activity, because the peasants are threatened by hunger and bankruptcy at any moment passes their army and destroy their crop, then infected with hunger and food shortages and find themselves unable to pay off their rent or taxes .

مقدمة :

كانت الحرب(1) هي المهيمنة على نظام الحياة في بلاد المغرب الإسلامي خلال معظم الفترات، وما دل أكثر على ذلك ما ورد في قول صاحب الذخيرة "فكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمناهل، ونبذ أكثر الناس الطاعة وفارقوا الجماعة، وقالوا لولاتهم لا سمع ولا طاعة، فاستوا الدنيء والشريف، وأكل القوي الضعيف، وكل من قدر على شيء صنعه، ومن اراد شرا ابتدعه "(2) فانقطع الحرث، واشتد الغلاء في البلاد بسبب ذلك الإهمال والفساد"(3). وأشار ابن خلدون إلى ذلك في قوله" وسبب هذه الحرب إما غيرة ومنافسة؛ وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه؛ وإما غضب للملك وسعي في تمهيده: فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والثاني: وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر، والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد. والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عنها والمانعين لطاعتها"(4).

كما يذكر ابن أبي زرع أن قبائل زناته الساكنة بالقفر تعيش في حروب متواصلة، لا تخمد واحدة إلا لتشتعل أخرى وكان ذلك طبعهم على حسب قوله" أن جل أموالهم الإبل والخيل ودأبهم الحرب وخواضان الليل "(5).

أما مصطلح الأزمة فقد يكون من باب تحصيل الحاصل تسجيل ندرة المعطيات التاريخية الإحصائية بمصادرنا الوسطية حين حديثها عن هذا مصطلح ، فمؤرخوا العصر الوسيط لم يستعملوا كلمة أزمة، التي دأبت الصحافة في عصرنا على أن تترجم بها كلمة crise الفرنسية أوcrisis الانجليزية، بل استعملوا ألفاظا أخرى ذات دلالة مغايرة بعض الشيء مثل: فاقة، قحط، وباء، غلاء، جراد، مجاعة، فتنة، خلاء الأرض،...الخ منتقلين من النتيجة إلى السبب ومجتنبين استعمال كلمة لاتخلو من إشكالية نظرية(6) . ذلك أن مفهوم الأزمة اتجه إلى تحديد جديد في عصرنا، انطلاقا من التاريخ الاقتصادي.

فالأزمة كما نتحدث عنها اليوم في أحاديثنا العادية مفهوم حديث يرتبط بالتطورات العظيمة التي مرت عليها الإنسانية منذ نهاية العصر الوسيط ويمس قبل كل شيء بالاقتصاد. فالأزمة تحدث عندما يقع اختلال في التوازن بين العرض والطلب. فإذا تجاوز الأول الثاني بنسبة معينة وتزايدت البضاعة في الأسواق وكثرت بكثير حاجة الاستهلاك، حدث بما يعرف بالكساد وأعقبه التناقص في الإنتاج وتزايد في البطالة، بحيث نجد أنفسنا أمام صيرورة حتمية تنتهي بانتشار الفاقة والفقر والبؤس داخل المجتمع، وقد تكون سببا في الاستياء العام والحروب، وأما إذا تجاوز الطلب العرض بنسبة معلومة، وكان يتعلق بمواد ضرورية ،كالحبوب وبعض المواد الأولية(7)، فان ذلك قد يؤدي حتما إلى حدوث المجاعة والأوبئة، ولعل هاته الحالة الثانية هي التي نجد عنها بعض الإشارات عند بعض المؤرخين بالنسبة للفترات المنصرمة من العصر الوسيط من تاريخ المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة .

فنحن عندما نلقي نظرة شاملة على مغرب العصر الوسيط، يراء لنا أن المجتمع الوسيطي لم يعاني في يوم من الأيام، من تضخم الإنتاج بل أن الاسطوغرافية تنوه عادة، بالسنوات التي ترخص فيها الأسعار وتكثر المحصولات، بل كانت تسجل أحيانا التشكيات الناشئة عن تدهور الإنتاج، وخاصة في سنوات القحط(8).

بما أن مفهوم الأزمة(أزمة الغذاء) مرتبط بالاقتصاد، والذي بدوره شكل عامل أساسي في أزمات وحروب العصر الوسيط، فما علاقة الحروب بأزمة الغذاء ؟

1-الحروب وعلاقتها بأزمة الغذاء: إن الباحث في معالجته لعلاقة الحرب بأزمة الغذاء يجب أن يبتعد عن المسار المألوف الذي يجعل من الحروب مجرد وصف، ومشاهدة تعكس قعقاعات السيوف وكذا على الباحث أن يرتحل من عالم الحروب إلى عالم المسكوت عنه في الحروب(9)، ليشق مسارا يروم البحث والتنقيب في العلاقة السببية بين الحرب وأزمة الغذاء، من اجل الكشف عن انعكاسات الحروب في بنيات المجتمع المغربي، ورصد الجدل القائم بين أزمة الغذاء والإنسان خلال الحروب، ويفك الكثير من الشفرات التي ظلت حبيسة الحشمة والكتمان في الاسطوغرافية الوسطية. وعليه يمكن طرح الإشكالية الرئيسية متبوعة بتساؤلات فرعية: ما علاقة الحروب والفتن بأزمة الغذاء ؟وما هي أبعادها وانعكاساتها، ووقع حصاراتها على المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط؟ وبما اتسم ذلك التفاعل بين أزمة الغذاء والحروب خلال العصر الوسيط؟ وما هي أصناف الغذاء بالمغرب الأوسط زمن الشدة والبلاء والغلاء ؟

1-1/الحروب وأبعادها:

-البعد البيولوجي: بالنسبة إلى هذا الطرح ينظر إلى الحرب باعتبارها خاصية من خصائص النوع البشري وسنة من سنن الكائن البشري كما ورد ذلك في قول ابن خلدون" أن الحرب أمر طبيعي في البشر لا تخلوا منه امة ولا جيل"(10). فهي مظهر من مظاهر تنازع البقاء يمثل وصفا طبيعيا ملازما للكائنات الحية لا ينفك عنها، وبوصفه سلوكا عدوانيا متأصلا في طبيعة الإنسان البيولوجية وبما أن هذا السلوك العدواني جعل لتامين البقاء، فقد شكل منذ البدء تقنية للحصول على الغذاء تجسدت لدى البدويين من خلال الصيد، فالحرب تصنف وتفهم باعتبارها نوعا من الصيد، فيصبح آنذاك الدافع إلى الحرب دافعا بيولوجيا مقترنا بالحاجات الغريزية للإنسان أولها الحاجة إلى الطعام والاطمئنان(11).

- البعد الاقتصادي :هذا البعد يربط الحرب بعنصر النزوع نحو الخصب ثم بعنصر الجوع حين تصبح الحرب وسيلة بدائية لرد غائلته وهنا تبدوا الحرب تنافسا بين الجماعات من اجل امتلاك الخيرات المادية، ويستند هذا الطرح إلى مقولة " اقتصاد الندرة " و"اقتصاد الكفاف"، إذ ارجع بعض المؤرخين اللأنثروبولوجين أن عزا أسباب الحرب في المجتمعات البدائية إلى كونها وسيلة للكسب ورد غائلة الجوع وان الحرب القديمة بين القبائل تتحول إلى عملية نهب وسلب في البحر والبر لأجل الاستيلاء على مختلف المواد، فالحرب إذن ترتبط اشد الارتباط بالفقر وتصبح في هذه الحالة قوام معاش البدويين ومصدرا عاديا للكسب والعيش(12).

- البعد السياسي: يعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن البعد السياسي للحرب يحدد على صعيد المجتمعات القبلية بوظيفتين أساسيتين:الأولى تتعلق بالتوحيد الداخلي للقبيلة والثانية في تحقيق تمايزها عن الخارج، وفي هذا الإطار تصبح الحرب تعبيرا عن السياسة الداخلية والخارجية للدولة فالحرب إذن بالنسبة لأصحاب هذا الاتجاه لا تفسر بردها إلى خاصية الإنسان البيولوجية أو الاقتصادية، بل قبل كل شيء أداة سياسية تحافظ الجماعة من خلالها على هويتها وكينونتها السياسية(13).

إذن الحروب هي آفة ذات أبعاد سياسية واقتصادية وبيولوجية أنهكت شعوب وأمم سابقة، وذلك لما ينجر عنها من أهوال وخراب، ناهيك عن القتل الذي يطال الناس، فروح العصر الوسيط تميزت بانتشار النزاعات العسكرية الكثيرة(14) التي أثرت في البنية الديمغرافية بالمنطقة، وعملت على تفتيت عضد المجتمع الوسيطي(15).

2-1 /وقع الحروب و الحصارات على مجتمع المغرب الأوسط :

قد لا نبالغ إن قلنا أن الحروب و الحصارات والجوائح الطبيعية تبادلت الأدوار لتعصف وتؤثر بإنسان المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة . ويبدوا من خلال المادة التي عثرنا عليها في مختلف المتون أن ظاهرة الحرب والصراع بين القبائل المغربية كانت حالة شبه دائمة لا تخمد واحدة إلا لتشتعل أخرى منذ القرون الأولى . وازدادت تجذرا خلال القرن السادس الهجري والقرون اللاحقة، فالحروب التي كانت تنشب بين القبائل ودويلات المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط مثالا واضحا لهذه المعاناة، من حيث الضرر والخراب الذي انجر عنها كطول أمدها وتعدد مناطق الصراع بها، وأكثر من ذلك تشابهها مع الكوارث الطبيعية المنشأ لما تلحقه من ضرر بالكائنة والساكنة في أي زمان ومكان(16)، كالمجاعات والأوبئة والأمراض وغلاء الأسعار وتدني المستوى المعيشي لإنسان المغرب الأوسط، بشيوع أزمات اقتصادية نتيجة ما تتطلبه تلك الحروب من أموال وعدة ورجال، مما ينعكس ذلك سلبا على البنيتين الديمغرافية والاقتصادية معا بالنسبة للطرف الغازي، أما الطرف المقصود بالغزو فتكون وطأة الأزمات عليه أعظم . فضلا عن الخراب العمراني الذي الم بالمدن والبوادي على حد سواء، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تراجع حضور السلطة مما يعطي انطباعا بضعفها وانكماشها.

– الحروب وخراب العمران: كان لظاهرة الحروب والفتن بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، دور كبير في تراجع العمران وخرابه وانهياره، بتخريب مدن وقرى بكاملها، وهو الأمر الذي اضر البنية العمرانية من طغيان الهاجس العسكري والحربي، وعمق الأثر على الناحية الاجتماعية للسكان، مما اضطر الناس إلى فراق مداشرهم وقراهم بعد أن أجلتهم الفتن "ولجئوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصنا ومآلا "(17).

ومما يعزز هذا التخريج ما رددته مؤلفات الفترة على حد قول صاحب بدائع السلك في طبائع الملك " لما تناقص عمرانها (افريقية وبرقة) ، تلاشت أحوال أهلها، وانتهوا إلى الفقر والخصاصة، وضعفت جبايتها، وقلت أحوال دولها "(18)، وفي قوله أيضا " وقطر المغرب، إن كان في القديم دون افريقية، فلم يكن بالقليل في ذلك، لاسيما في دول الموحدين، وهو لهذا العهد قد اقصر عن ذلك التناقض عمرانيا ...وهي اليوم كلها قفار أو صحاري إلا ما هو بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول" أما عن الأمصار الصغيرة " فتجد لذلك أهلها ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة، إلا في النادر؛ إذ الأفضل لهم يتاثلون به كسبا "(19).

يبدوا أن استقراء بعض ملامح تاريخ المدن والقرى بالمغرب الأوسط خلال العصر الزياني الوسيط، ما يفصح عن الضرر الذي لحق بالعديد منها، نتيجة الاضطرابات والفتن السياسية المتلاحقة الناتجة عن توالي الحروب والحملات العسكرية الداخلية كقمع الحركات الانفصالية، والخارجية بين المرنيين من جهة و الحفصيين من جهة أخرى، وكذا غارات القبائل ذات النجعة والأعراب عليها .

ما كان لتوالي هذه الحروب الداخلية والإقليمية على الدولة الزيانية إلا أن تضعف بالبلد، وتدفع بكثير من المدن إلى حافة الانهيار ومما يكشف ذلك الخراب وأثره على البنية الاجتماعية، ما ذكرته المصادر عن وضع المدن والحواضر المغربية في ظل الحروب العبد الوادية المرينية، ويكفي أن نشير إلى النص الذي أورده احد الجغرافيين عن حال مدينة توريرت التي كانت ميدانا للصراع بين الدولتين إذ يقول " توريرت مدينة متحضرة آهلة بالسكان، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف كانون ...غير انه لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة، فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم، فادى ذلك إلى أن احتلتها بنو مرين، ودمروا قسما كبيرا منها كان يسكنه أعداؤهم، ثم بعد ذلك وثب عليها ملك تلمسان، فاستردها وخربها، ونهب الجانب الذي يسكنه أعداءه منها، وجاء في موضع أخر" سكانها القليلون، بعد أن هدتهم الحروب، وغلبهم اليأس، فعزموا على الهجرة وترك المدينة، وبقيت توريرت خالية موحشة "(20).

أفضت بلاد المغرب الأوسط نتيجة الحروب إلى حالة من الانهيار العمراني، لم تشهد البلاد مثله على حد تعبير ابن خلدون" انتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن ...وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض "(21).

ولا شك أن الضرر والخراب الذي لحق بالمغرب الأوسط جراء هذه الحروب، التي جعلت مرافقه تتوقف، وطرقه تتعطل، كان له بالغ الأثر في وضعية أفراد مجتمعه. ومن الأمثلة التي تعكس التردي في الأوضاع الاجتماعية فترة الحصارات ودورها الكبير في اشتداد أزمة الغذاء أثناء الحروب، إذ كثيرا ما كان يلجا الأمراء والسلاطين إلى فرض الحصارات كمرحلة متقدمة في السياسة الحربية، كان الهدف الأساسي من إقامتها هو تجويع الناس وتفقريهم، فتنقطع عليهم جميع المرافق، مما يكون له الوقع السيئ على المستوى المعيشي للسكان، فالكثير من النصوص التاريخية خلال فترة مدار الدرس أثبتت ذلك الأثر العميق للحصارات(22).

ولعل أهم الحصارات التي كان لها التحول البارز ما عرفته الدولة الزيانية مع جارتها بني مرين وبالضبط في عهد يوسف بن يعقوب المريني، التي دامت من(698ه/1298م) إلى سنة(706ه/1306م) ، خرب سكان مدينة تلمسان سقوف بيوتهم للوقود، وخلت المدينة من سكانها، وفقد نحو من مائة وعشرين ألف نسمة، هلك بعضهم جوعا وفر بعضهم خارج المدينة، واكل التلمسانيين الميتة والجيف والحشرات والزواحف وغيرها، ويقال انه بقي بتلمسان في عهد أبي زيان مائتي نسمة وألف جندي(23). فقد شكلت اخطر الحصارات وأشرسها على تلمسان، إذ دامت لمدة أكثر من ثمان سنوات، وانجر عن هذا الحصار كثرة الموتان والجوع وغلاء الأسعار(24)، وما يدل على ذلك قول ابن الأحمر"وهو في ذلك يشدد الحصار عليهم ويقول : لأواصلنه عليهم حتى اقتلهم جوعا "(25). وكانت النتيجة حدوث مجاعة عظيمة تحدثت عنها كتب التاريخ بإسهاب، وسجلت مآسيها.

كما عاود أبا الحسن المريني حصار واقتحام تلمسان سنة(737ه/1336م)، وخلالها دخل المرينيون البلدة فنهبوها وخربوا الكثير، وانطلقت الأيدي على المنازل نهبا واكتساحا(26).

وإجمالا فقد تضرر المغرب الأوسط جراء هذا الخراب العمراني تضررا كبيرا وتجلى ذلك في شهادة ابن خلدون في قوله"... وأبي حمو وأبي تاشفين من قبله قياسا متورطا في الغلط بعيدا من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد من الضعف والزمامة وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم "(27). وكيفما كان الحال، فقد ظلت حملات وغارات الأمراء الزيانيين والمرنين لا تنطفئ واحدة إلا وتقوم أخرى حاملة في طياتها بذور الدمار والخراب.

-الحروب وإفقار المجال الفلاحي: شكل النشاط الفلاحي المورد الأساسي لغالبية سكان المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، فهو المصدر الضروري للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبا، ولا يمكن لنا الوجود من دونه، فلا حاجة إذن إلى كبير عناء لإثبات أهمية رصد العلاقة بين النشاط الفلاحي وتأثيرات الحرب ما دامت الحرب تحيل في أكثر دلالاتها الاجتماعية على الخراب والفقر، واختلال أمر الناس ومعاشهم وفساد أحوالهم.

كانت الحروب والغارات أهم مشكل عانى منه المجال الفلاحي بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط. خاصة أن بعض من كتبوا في" تدبير الحروب ومكائدها " أكدوا أن الأمير" إذا أراد اخذ بلد معين، فينبغي أن يبدأ بما حولها من القرى والبلاد والضياع. لذلك فقد كانت سياسة النسف والرعي والعيث وإفساد الزروع وحرق المحاصيل ومطاردة الفلاحين وتهجيرهم من أراضيهم هي السائدة في هذه الفترة(28).

والدولة الزيانية لم تكن في أصلها سوى قبائل من تلك الأمم الوحشية الساكنين بالقفر(29)، والتي كان يقضي رجالها " حياتهم كلها حتى الموت في الصيد، واختطاف جمال أعدائهم ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ريثما ترعى إبلهم كلأه"(30)لان العادة "ابتغائهم الرزق من تحيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة"(31)، وكان لضآلة الأرض وفقرها، فضلا عن تعاقب سنوات الجفاف وارتباط نشاط القبيلة على الأرض بمدى وفرة المياه، تدفع القبائل إلى غزو بعضها البعض، حيث تبدو الحرب انعكاسا مباشرا لشروط اقتصادية غير ملائمة وظروف معاشية قاسية(32) .

الظاهر أن مصادر الفترة الوسطية قد أبدت انفعالات مختلفة حول الكيفية التي تأثر بها المجتمع الفلاحي من جراء تلك الغارات، وإطلاق الأيدي والأعنة لنهب المحاصيل والماشية، وتحطيم الزروع، وانتساف الآثار، وتقري النواحي(33)، فقد كان للحروب التي بدأت تنشب بين بني عبد الواد بتلمسان وبني مرين منذ العقد الثالث من القرن(7ه/13م) دور واضح في تخريب كثير من المجالات الزراعية والرعوية، خاصة في خطوط التماس بين الجانبين بالمغرب الشرقي، مما اثر كثيرا على الجانب الفلاحي في هذه المناطق. إذ لم يتردد يغمراسن بن زيان في شن الغارات على ثغور المغرب، وإضرامها نارا، كلما سنحت له الفرصة لذلك، فيحرق وينسف ويستبيح كل ما مرت به جيوشه(34).

ومن جهته لم يتوان أمير بني مرين عن شن الغارات على البسائط واكتساحها ونسفها "بتخريب الرباع، وانتساف الجنات، وقطع الثمار، وإفساد الزرع، وتحريق القرى والضياع، لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك وأكثر(35). وهو الأمر الذي أنهك الفلاح المغربي وزاد في بؤسه وإفقاره. كما يصور لنا القول القائل "تخطو إليه القفر ودخلوا ثناياه وتفرقوا في جهاته وارجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة

بسائطهم" عمق الأثر الذي خلفه هذا الاقتحام في المشهد الفلاحي من بني مرين للمغرب الخصيب على اثر هزيمة وقعة العقاب خلال هده الفترة (36) .

كما قام العاهل التلمساني أبو سعيد عثمان بتكرير هجماته وغاراته العسكرية على بلاد بني توجين بمنبت عزهم وقاعدة ملكهم بجبال الونشريس، فكانت أول غزواته نحوهم سنة 686ه فحاصرهم، والحق بهم الفساد والخراب، كما عمل على نقل خيرات البلاد من زروع وحبوب نحو مازونة، ثم عاود مناهضتهم سنة 687ه بعدما شتت شملهم فملكه(37).

ولكن بعد عودة الصراع الزياني المريني على أوجه حتى نجد بني توجين بزعامة محمد بن عبد القوي يصرف ولاءه لبني مرين وهي الفرصة التي كان يتحين لها عبد القوي، أين اخذ الثأر مما لحقه من ويلات الحروب التي كان يرددها العاهل الزياني على بلاده فشفى غيظه بتحطيم المزارع والقرى المجاورة لتلمسان

" فقطعوا الثمار ونسفوا الآبار وخربوا الربوع، وافسدوا الزورع، ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة والدوم " كما قام عبد القوي أثناء رجوعه بتهديم مدينة البطحاء وتخريبها عن آخرها(38).

وكثيرا ما كانت البوادي أوقات الحروب عرضة لعمليات السلب والنهب التي تشمل المزروعات والحيوانات بمختلف أصنافها من قبل الجيش المار بها، حتى يضمن غذاء يومه فضلا عن عمليات التخريب والحرق وإتلاف الزروع (39)، وثمة نص أورده ابن الأحمر يوضح فيه لنا مدى تضرر بوادي وقرى المغرب الأوسط جراء الحروب المتكررة عليه من قبل بني مرين في قوله "ثم ارتحل حتى أحاط بتلمسان و يغمراسن لها محاصرا، فقاتلها و انتسف ضياعها وجناتها وبعث السرايا على بواديها و أحوازها ينهبون ويخربون القرى والعمارات، ولم يزل يغمراسن نهبة سيوف بني مرين إلى أن مات "(40)، مثلما انه في حملة أخرى اكتسح بنو مرين نواحي تلمسان، و اصطلموا نعمها عام 714ه/1314م(41).

ونظرا لان البوادي هي المعول الرئيسي للمدن بمختلف المنتوجات الضرورية، فان الحركة التجارية بينهما كانت تتعطل في أوقات الحروب والفتن، سواء بسبب تلف المحصول أو الخوف من التنقل، فترتفع أثمان مختلف السلع الغذائية في أسواق المدن نتيجة قلتها فتحدث المجاعات في كثير من الأحيان(42).

على أن ابرز نموذج لحروب هذه المرحلة، وما خلفته من نتائج كارثية على الفلاح و منتوجه، تتمثل في حروب و تعسفات الأعراب الساكنين بالمغرب الأوسط بتخريبهم للمجال الفلاحي، بل تعدته إلى التحكم في ملكيات الناس والتسبب في فقرهم نتيجة سطوة العرب المسئولين في بعض القرى على أملاكهم، وكذا تجويعهم من خلال إفساد معاملاتهم بل العمل على هجرتهم من قراهم أيضا، كما عمدوا هؤلاء الأعراب إلى امتهان اللصوصية والحرابة وقطع الطريق على المسافرين والقوافل التجارية، كما جاء في إحدى النوازل التي سئل عنها الفقيه ابن عرفة وذلك سنة(796ه/ 1393م)، حول محاربة قطاع الطرق من أعراب المغرب الأوسط الذين يقدر عددهم بعشرة ألاف فارس أو أكثر، اشتهروا بشن الغارات واستحلال دماء الناس وحرماتهم فكان جواب ابن عرفة " جميع ما ذكر من قتال هؤلاء وجهادهم والإشارة لثواب مجاهدتهم ورجحانه على جهاد الكفار غير مبتدئين قتال المسلمين حق صحيح لا ينبغي لمسلم مخالفته (43) .

ونتيجة لهذه الوضعية عاش أهل القرى والبوادي و مرتادوا الصحراء الرحل في خوف دائم من هؤلاء الأعراب الذين مثلوا خطرا يهدد أمنهم في أي لحظة يداهمونهم فيها وينتهبون أموالهم ويعيثون محاصيلهم ويستحلون دمائهم وحرماتهم، الأمر الذي جعل الفلاحين يترحون ويهجرون أراضيهم وتركها بورا حتى أصبح الحديث عن " بواد أضحت مهجورة" (44)، و مجاشر "خلت وانجلى عنها أهلها"(45).

وتجدر الإشارة إلى ظاهرة رافقت هذه الأوضاع وأسهمت في تأزم الوضع الفلاحي، ويتعلق الأمر بالمجاعات التي عرفها المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة خلال هذه الفترة نتيجة" قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر"على حسب قول ابن خلدون(46).

والظاهر أن تأثير الحروب لم يقتصر على خراب العمران والإنتاج الفلاحي بل شمل نواحي أخرى، كتأثيره على النشاط الحرفي الذي يستمد مادته الأولية من الفلاحة، وقد سبقت الإشارة إلى التخريب الذي طال المحاصيل الزراعية، وما تعرض له الفلاحون من عدوان أفضى إلى قبض أيديهم عن الفلح، وأدى إلى توقف النشاط الزراعي وتدهوره، وإذا علمنا أن الصناعة قد وجهت خلال هذه المرحلة لتغطية المطالب المعاشية، أمكن فهم سهولة تعرض هذا النشاط للانتكاسة كلما أصيبت الفلاحة بالتدهور والانهيار(47).

وبالمثل فان مصير الإنسان من جراء تلك الحروب، كان أكثر مأساوية فكثيرا من الأسر أصبحت في وضع مادي حرج، وأضحين في عوز وعالة؛ وخاصة بعد فقدان العائل لها، فأصبح مشكل الإنفاق، وضعف الحال ابرز ما عانت منه معظم الأسر.

إذ يظهر أن الوضع كان أكثر تعقيدا بالنسبة للزوجات ذوات الأولاد اللواتي تفاقم عليهن مشكل الإنفاق، وأضحين يشتكينا الفقر والضنك؛ مما اضطرهم الأمر إلى طلب الدين كما ورد ذلك عند الونشريسي في احد النوازل" سئل احد عن امرأة اعترفت لولدها الأكبر بدين وهي معلومة بالفقر والحاجة، ولها أولاد صغار مثله "(48)، وهو نص يشي بأن عامل الفقر كان من العوامل الأساسية التي أرغمت المرأة على الالتجاء للدين، فضلا عن كثرة الأبناء التي تتولى مسؤولية رعايتها.

وعموما فقد أضرت حروب وغارات العصر الوسيط بالمجال الفلاحي، وقلصت من مردوديته بفعل نهب الأنعام وإحراق المحاربين للمحاصيل الزراعية، وتخريبهم للحقول، ولاشك أن دورية هذه الأوضاع، واستمرارها أفضت إلى تقلص المساحات المزروعة، وهذا نتج عنه انحطاط اقتصادي شامل نظرا لقلة الإنتاج مما سبب أزمات غذائية شديدة الوقع على أفراد مجتمع المغرب الأوسط. وأدت الحروب إلى تراجع في النشاط الزراعي والرعوي في البوادي، لان الفلاحين مهددون بالجوع والإفلاس في أي لحظة يمر بها الجيش ويتلف محصولهم، عندئذ يصابون بالفقر ويجدون أنفسهم عاجزين عن دفع ما عليهم من كراء أو ضرائب.

ومن خلال البحث بين مضان المتون المصدرية، يتضح انه لا يكاد يخلوا عقد من العقود خلال فترة مدار البحث سَلمَ خلاله المغرب الأوسط من الحصارات والحروب، التي كانت فعلا من معالم العصر الوسيط السلبية وسببا من أسباب نقص الغذاء، وظلت دوما شبحا مخيفا يهدد باستمرار المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، على اعتبار الضرر الذي ألحقته بكافة النواحي الاجتماعية والاقتصادية و الديمغرافية لأفراد المجتمع الوسيطي .

والظاهر أن تلك الحروب كان هدفها بارز وهو البحث عن الحظوة والأراضي الخصبة التي تكفي ضنك العيش، وحفظ الاستمرار والبقاء وعليه يمكن أن نسمي تلك الحروب بحروب العوز ونقص الغذاء.

3- المجتمع الزياني وزمن الشدة: عرف المجتمع الزياني ككل المجتمعات كوارث وآفات طبيعية وبيئية لا حصر لها، عجلت بظهور جوائح من قحوط وجفاف وبرد وسيول، والتي تسببت في مجاعات وأوبئة، كادت أن تعصف بكيان البنية الاجتماعية والاقتصادية وكذا الديمغرافية لمجتمع المغرب الأوسط.

والظاهر أن المغرب الأوسط الزياني كغيره من المجالات الجغرافية الأخرى، تخللته سنوات مطيرة وأخرى جافة، نتج عنها القحط والتي هي من اخطر الجوائح المائية، فقد أفضت بعض المصادر إلى أهمية عنصر الماء في حياة الإنسان وأشادت بمدى ضرورته في توفير الغذاء. ومما يزكي هذا الطرح أن تلمسان أعقبتها سنوات عديدة من الجفاف وعدم سقوط الأمطار حتى تشققت الأرض، وجفت الآبار وعدمت الزراعة "(49)، ويبدوا أن حال أهل مرسى الخرز كان أسوأ بكثير من باقي المدن أين كان الماء قليل عندهم حتى بلغ ثمن الشربة الواحدة في احد الفترات إلى ربع دينار(50)؛ إذ وصفها الوزان "وهؤلاء في غاية الكرم، مع أن الناس لا يمرون بمضارب خيامهم لجفاف أرضهم "(51).

ويقدم الونشريسي في موسوعته النوازلية مادة هامة عن معاناة إنسان المغرب الأوسط جراء نقص الماء، وذلك من خلال المنازعات التي كانت تحدث بسببه بين الفلاحين، كما هو مجسد في إحدى النوازل "سئل احد عن قوم كان لهم وادي كبير فغرسوا عليه جنة كثيرة ويحرثون عليه فإن كان الشتاء كثر وإذا كان المصيف قل حتى يصل إلى الأسفلين يرده الأعلون عنهم وإن أرسلوه إليهم أضر ذلك بالأعلين أيضا>" وكان جواب الونشريسي له "للذين غرسوا على الوادي لهم السقي إلا أن يقل الماء ولا يكون فضل عن الأولين "(52)، وهذه النازلة تبين لنا أن اعتماد المزارعين على عملية السقي وذلك لقلة وندرة الأمطار .

ولم يقتصر الأمر على نقص المياه وقلتها، بل تخللت المغرب الأوسط جوائح أخرى، كجائحة السيل والثلج الذي تساقط بتلمسان خلال القرن 9ه/15م حسب ما ورد عند ابن مريم " نزلت ثلجة عظيمة فتعطلت منها الأسواق وانهدمت الديار"(53)، والذي أفضى إلى خسائر اقتصادية من إتلاف المزروعات والحيوانات مما يؤثر ذلك على الفلاح، وكذا تعطل الأسواق وحركة السير وتنقل القوافل التجارية.

كما أثرت الرياح هي الأخرى على الزروع بإتلافها وحرقها أحيانا على نحو كلام الوزان " فإذا هبت في غير فصل الصيف فإنها تؤدي إلى إتلاف وحرق المحاصيل الزراعية، وأما الرياح الشرقية فهي أيضا تتسبب في إتلاف المحاصيل الزراعية خاصة وانه يصاحبها قحط شديد"(54).يذكر المؤرخون أن هناك ريحا وعاصفة هوجاء، عجت في سنة 776ه/1373م، على المغرب الأوسط فأهلكت الحرث والنسل، واقتلعت كل شيء فانتشرت المجاعة حتى أكل الناس بعضهم بعضا"(55).

وفي كل الأحوال فان المتضرر الأكثر من هذه الجوائح هم الفئات الضعيفة والفقيرة القاطنين بالبوادي، فقد أهلكت لهم هذه الآفات الزرع والضرع، وأدت إلى تعطيل نشاطهم الزراعي والرعوي معا، والفلاح إذا ما تضرر محصوله بهذه الكوارث أصبح مهددا بالإفلاس، وعرضة للفقر والحاجة، وهنا يجد نفسه عاجزا عن دفع تابعاته من

المكوس و المغارم التي كانت السلطة تفرضها عليه. وهذا لا يستثني أن المدن كانت بمعزل عن هذا الضرر، ففي حالة تضرر المحصول بجائحة فتقل الصابة، وتعيش المدن أزمة غذائية، لأنه يتعذر على الجلابين جلب منتجاتهم إلى المدن، أو أنهم يجلبون منها القليل وتكون بأثمان عالية، فيقل وجود السلع بالأسواق فيحدث الغلاء فتقع الخصاصة(56).

ولا شك أن معظم المجاعات الدورية التي عصفت بالمغرب الأوسط خلال فترة مدار البحث، كانت نتيجة لتلك الجوائح المختلفة، والتي أحدثت تحولا في حياة الفرد الزياني، بانعدام الأقوات ونفوض الغلات وقلة مردودية الأرض، فأهلك الإنسان والحيوان معا(57)، وقد ذكر عبد العزيز فيلالي عن وصف ابن الخطيب هذه الظاهرة بقوله "عظم الجفاف، وعصفت الريح الرجف، تنقل الهضب قبل ارتداء الطرف وتبدل أعيان الأرض، وتعاجل حلاق لمم النبت، فصيرت وجه الأرض كمطارح خبث الحديد، أمام مضارب البيد، يساو قحلا، وعقرا للأرجل عصيانا على السنابك، وأحرقت ما كان قد نجم من باكر البذر ونشط النبات ودامت فاستأصلت الأوراق من الشجر الدهين، الذي لا يسقط ونشفت البشرات وأثنيت الجلود "(58). ومما يعضد هذه النصوص أكثر وصف العبدري لمجاعة 688(ه/1289م) في قوله "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلد حلت بها زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبق به علالة ولا تبصر في أرجائه للضمآن بلالة"(59)، وما يعزز ذلك أيضا، قول ابن خلدون عن مجاعة(698-707ه/1299-1307م)، "واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم "(60)، وهي كلها نصوص تصف الأوضاع المزرية التي آلى إليها المغرب الأوسط جراء تلك المجاعات. كما كان وقع وصدى كبير لمجاعات أخرى كمجاعة(676ه/1374م)، التي شملت كامل المغرب على حد قول ابن القنفد " وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب، وعم الخراب (61).

كما أن إصابة أهل القرى والأرياف خاصة الفئات العامة منهم بالسنة الشديدة أو الآفات الطبيعية في منتجوهم الفلاحي الذي كان يعتمدون عليه في كسب قوتهم، كان يدفعهم إلى الهجرة إلى أماكن أخرى بحثا عن واقع وحياة أفضل، بدل عيشة الظنك وهذا ما أقرته إحدى نوازل المازوني التي تعبر عن مثل هذه الهجرات بسبب الفقر والجوع والتي سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي؛ بحيث يدور محتواها حول رجل فقير اضطرته الحاجة إلى السفر، وكان عليه دين كبير ولم يترك لزوجته مالا ولا يعلم الناس هل هو حي أم ميت؛ فهل تستحق زوجته الزكاة، فكان جواب هذا الفقيه أن تعطى هذه الزوجة من الزكاة إن كانت على الحالة المذكورة(62).

لا مراء أن المجاعات قد أحدثت خللا في نظام المجتمع الزياني، وأثرت على مستوى معيشة أفراده والذي انحدر إلى الأسوأ على حد تعبير ابن خلدون لسكان تلمسان " نالهم فيها الجهد والجوع ما لم ينل امة من الأمم"(63). لكن من المستحيل أن نضع حالة الملوك وعامة الناس أيام المجاعة في كفة واحدة، فالمتمعن بين طيات هذه النصوص يجعلنا نؤكد أن السلاطين لم يشكو قط من العوز، فقد ظل الطعام في مخازن السلطان أبي زيان بالرغم من طول الحصار، كما أن السلطان الذي احتاج إلى الطعام استطاع الحصول عليه دون صعوبة و مشاق، عكس الفئات العامة المهمشة والعاجزة لفقرها، فتكون أول الفئات هلاكا بالجوع "(64). وكان لاكتساح الوباء بالمغرب الأوسط سببا أخر في تقهقر أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية، وربما كان سببا في ظهور

المجاعات وغلاء الأسعار وانتشار الأمراض وبالتالي انهيار ديمغرافي للمجتمع، مما يفرز واقعا حياتيا صعبا على كافة شرائح المجتمع خاصة الشريحة الدنيا التي لا تستطيع المقاومة والصبر كثيرا.

ولا شك أن الأوبئة الواقعة في سنوات (630ه-1232م /635ه-1237/ 693ه-1293م)، والتي وقعت عقب حدوث مجاعات شديدة في مختلف مناطق المغرب الأوسط ، كان سبب حدوثها هو سوء التغذية خاصة الفئات ذوي الدخل الضعيف، وربما يرجع الأمر كذلك إلى فسادها، ولعل من أصعب الأوبئة التي عرفها المغرب الأوسط على غرار بلاد المغرب الإسلامي في أواخر القرن (9ه/15م) ؛ ذلك المرض الجلدي المسمى الزهري أو"داء الإفرنج "(65).

ويبقى دائما نقص المادة المصدرية المتخصصة وغياب معطيات دقيقة، يكتسي إيحاءات العبارات التي تستوفي وصف ملامح تلك الفئات العامة وما عانته من ألام ومآسي خلال فترة مدار البحث، لكن مما لاشك فيه أن الأوبئة ظلت مع مرور الأحقاب من الأمور اللصيقة بالفقر والفقراء بسبب سوء التغذية وانعدام شروط النظافة، وهو ما يفسر أن أعداد الموتى جراء الكوارث الطبيعية والآفات كان يتصدره أناس من العامة والفقراء وخاصة الأطفال والصبيان فقد توفي في تلمسان الصبيان جراء وباء كان قد أصابهم في فترة استقرار الرصاع بها، وهو يزاول دراسته الابتدائية،... هذا الوباء الذي لا نعلم زمنه تحديدا(66).

كما كان لارتفاع الأسعار بالمغرب الأوسط، أثناء مجاعة(698ه/1293م) وطاعون (764ه/1363م)، من نتائجهم ندرة الأطعمة الضرورية، وغلاء المتوافر منها في الأسواق بسبب الاحتكار وأعمال المضاربة هذه الحقيقة عبر عنها التنسي بقوله" بلغ فيها الرطل من الملح دينارين، وكذلك من الزيت والسمن والعسل واللحم، ذكر بعضهم أن الدجاجة بلغت ثمانية دنانير ذهبا"(67)، ولتوضيح ذلك أكثر نرى من الأجدر ترك المجال لابن خلدون وما رصده لنا عن ارتفاع الأسعار بقوله " أن ثمن البقرة الواحدة ستون مثقالا، والضأن سبعة ونصف والرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم... وحتى الخس بعشرين درهما، ومن اللفت بخمسة، عشر درهما، والفقوس بأربعين درهما، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهما، والحبة من التين والأجاص بدرهمين"(68). هذا النص يكشف خبايا وضع إنساني متدهور، بسبب الأزمة الغذائية التي بلغت ذروتها بالارتفاع المفاجئ للأسعار، والاختفاء السريع للمؤن، وانعدام الأطعمة، ومن ثم نتصور حجم المحن التي كابدها إنسان المغرب الأوسط في صراعه المرير ضد جبهة الغلاء الفاحش .

إن قيمة السلع وخاصة الغذائية منها زمن المجاعات والكوارث قد عرفت ارتفاعا في أسواق المغرب الأوسط من دون شك (69)، وهذا ما أقرته بعض المصادر فتكاد كل مجاعة تقترن بغلاء الأسعار.

شكلت الحبوب الغذاء الرئيسي لسكان المغرب الأوسط، فهي من"ضرورات القوت"كما عبر عنها يحي ابن خلدون، "وربما غلاء أسعارها أوقات المجاعة راجع إلى كثرة الطلب عليها، فقد بلغ ثمن صاع من القمح ديناران وربع أثناء الحصار بتلمسان سنة(698-707ه/1298-1307م)، وبلغ ثمن الصاع من الشعير نصف ثمن القمح أي دينار"(70)، في حين بلغ ثمن البرشالة من القمح مثقلان ونصف من الذهب العين(71)، وبلغ سعر صاع ونصف من القمح دينارا سنة (842ه/1438م) حسب ابن صعد التلمساني(72). من خلال التأمل في

أسعار المواد الواردة في النص يظهر أن معايير الغنى والثروة تهاوت قيمها تباعا، أمام قيمة القمح في فترة ضغط كارثة الجوع فأصبحت قيمة خبزة و قدح من القمح أنفس وأغلى من حقل زيتون في ارض خصبة(73).

على غرار ارتفاع أسعار الحبوب بأنواعها، عرفت اللحوم بأنواعها، ارتفاعا مشهودا نتيجة الكوارث التي تسببت في فقدان الكثير من الحيوانات على حد قول يحي ابن خلدون" واشتملت هذه السنة(776ه-1374م) على مجاعة شديدة... لريح ذات إعصار أهلكت زرع صافتها وحيوانها"(74).

وعلى خلاف ما حظيت به أسعار الحبوب أثناء الغلاء من اهتمام المصادر، لم تكن أسعار اللحوم والدواجن لتحضى بالاهتمام نفسه، إلا في إشارات يسيرة لكن ما هو ملاحظ أثناء فترة الغلاء حتى الحيوانات المحرمة من قطط، وكلاب، وحيات أصبح لها ثمن معتبر في الأسواق، كما ارتفعت أسعار المواد الغذائية الأخرى ارتفاعا رهيبا بالرغم من أن المصادر لم تكن لتشير إلى أسعارها في مثل هذه الأوقات إلا نادرا، لأنها تصب اهتمامها على أسعار القمح والشعير باعتبارهما أساس غذاء الإنسان المغربي، في حين انفرد ابن خلدون بذكر أسعار كل المواد الغذائية (75).

وإجمالا يمكن الإقرار أن غلاء الأسعار للمواد الغذائية من حبوب وثمار ولحوم وغيرها من مواد أخرى، كان له الأثر البارز في تدهور المستوى المعيشي والصحي للفرد الزياني، ومن ثم ندرك مدى ضلوع ظاهرة غلاء الأسعار في حدوث هزات قوية في مصادرة الثروة والجاه التي أضحت لا قيمة لها كلما فقدت الأقوات واشتدت الأسعار، فأضحت عملة الفقر شعار لصيق بالفرد الزياني زمن الغلاء .

4- نمط الغذاء السائد خلال زمن الأزمات والحروب: إن فترات المجاعات الدورية التي عصفت بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، أحدثت تحولا في منظومة الغذاء بسبب الخلل الذي عادة ما يصيب وتيرة التوازن بين عدد السكان وموارد التغذية، الأمر الذي دفع الناس إلى محاولة إيجاد إيقاع يستجيب لمستجدات نظام غذائي خارج عن العادة و المألوف من اجل خلق توازن بيولوجي ونفساني(76) .

تختلف المادة المصدرية التي تؤرخ للنظام الغذائي في الزمن العادي والمألوف(77)، ولا شك انه في هذا المستوى تبرز كتب النوازل اقرب المصادر التي رصدت الحياة اليومية والعادية للسكان لارتباط الفقيه والمفتي بمجتمعه(78).

على أن ابرز مثال لذلك ما أورده صاحب المعيار في موسوعته عن استهلاك الناس الزرع قبل نضجه إذ سئل في إحدى نوازله "عمن وصلته الحاجة وله زرع اخضر فأكل منه شيئا قبل يبسه " (79)، فالنص يؤكد بوضوح أن المنتوج عند الحاجة يستهلك في زمن متقدم على الزمن المألوف. فلا سبيل غير ذلك لسد رمق الجوع ودفع طائلة المسغبة .

وثمة نازلة أخرى وردت عن أكل الفول قبل يبسه، وإعطائه على وجه السلف(80)، كلها نوازل تثبت لجوء الإنسان عند حلول الأزمات به إلى استهلاك أغذية لم يألفوها من قبل.

وتأتي الحبوب كالقمح والشعير والحنطة في مقدمة المواد الغذائية التي تتحدث المصادر عن فقدانها أيام المجاعات، وهذا يوضح أنها شكلت الغذاء الأساسي لسكان المغرب(81)، الأمر الذي أدى بهم إلى تخزينها في مطامير تحسبا لأيام المسغبة والشدة .

يتوجه الناس في أوقات المسغبة إلى استهلاك أغذية لم يستهلكوها من قبل بسبب انعدام الغذاء، منها ما هو غريب ومنها ما هو محرم (82)، فمن المؤسف أن المصادر لم تشر إلى أهم الأغذية التي تناولها الناس أوقات الشدة الواقعة بالمغرب الأوسط، ونستثني من ذلك ما أورده الوزان عن غذاء السلطان الزياني وقت الشدة والمجاعة الحاصلة بتلمسان أيام الحصار المريني عليها، في قوله " كان غذاءه عبارة عن مزيج من لحم حصان وحبوب شعير كاملة، و ورق ليمون وأشجار أخرى ليزداد حجمه "(83)، وعليه ففي غياب المادة المصدرية المتخصصة أخذنا بعموم النصوص باعتبار أن المغرب الأوسط جزء من المغرب الإسلامي فقد حاولنا جعل إسقاط حول الأغذية التي كان الناس يقتاتها أيام المجاعات والأزمات بالمغرب الإسلامي ككل.

فقد أشارات بعض المصادر أن الناس أكلوا أيام المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 632ه/1234م طحينا من نواة الزيتون الذي كان غذاء أهل البوادي المقفرة، فيجلبه الفقراء في مثل هذه الشدائد ليقتاتوا منه ثم يبيعون فضلاته(84)، وقد ظهر خبز التابودا عقب هذه المجاعة التي اجتاحت المغرب، حيث اعتمد الجياع في طعامهم على خبز كان يصنع من نبات " تابودا " الذي يشبه القصب، ينبت في الصهاريج والسواقي والأنهار، فيجففونه بعد ما يترع السم منه و يطحنونه ويعملون منه خبزا يخيل لمن يراه، فإذا التمس شيئا منه باستعماله ومذاقه لم يجد شيئا (85)، وشكل نوار الخروب أيضا مادة استهلكها السكان بطبخها على شكل عصائد لسد رمق الجوع الذي رافق تلك المجاعات الشديدة على حسب قول ابن عذارى "من جملة ما اقتات به الناس في ذلك الوقت عصائد تصنع من نوار الخروب، وما عدا هذا ليس له وجود البتة حتى لقد هلكت أمم لا تحصى"(86).

كما عملوا على التقاط بعض النباتات البرية وتحضيرها في شكل أكلات لسد رمق الجوع بها، منها نبات شبيه بالدخن فكان " الناس إذا استخرجوه طبخوه وخبزوه و اعتصدوه ويعرف بالقبساطة (87) .

أجبرت حالات الضرورة القصوى إبان الأزمات أهالي الغرب الإسلامي الإقبال تحت ضغط الاكراهات إلى تناول مواد غذائية تندرج في عداد الأغذية المقززة من قبيل جلود البقر و الاصماغ، ولعل من أبشع السلوكيات المنسلخة عن طبيعتها الفطرية، ما أقدم عليه البعض من أكل فضلاتهم أو المتاجرة فيها بالبيع والشراء(88).

ومن الأغذية المحرمة التي لجأ إليها السكان اضطرارا، لحوم الجيفة حسبما تجلى ذلك في شهادة ابن نظيف الحموي عن المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 620ه/1223م :"وفيها كان في الغرب من الغلاء ما لا يعبر عنه بحيث أكلوا الميتة جميعها "(89)، وفي السياق نفسه أشار السلاوي إلى استهلاك الناس في المجاعة الواقعة بتلمسان أثناء الحصار "إذ أكلوا القطط والفئران والحيات والسباع والكلاب والضفادع وجلود البقر والعقارب"(90)، كما اضطروا إلى أكل غائطهم بعد أن جعلوه في الشمس حتى ييبس وطبخوه"(91) وأشار ابن خلدون إلى ذلك في قوله " حتى لزعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي "(92)، ومما يعضد هذا التخريج أكثر قول يحي ابن خلدون عن مجاعة 776هـ/1374م في قوله " واشتملت هذه على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا"(93)، لذلك حق لصاحب كتاب جغرافية الجوع القول انه " ليست هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع(94).

ومن حصاد ما سبق يتضح أن الأزمات الاقتصادية التي ألمت بمجتمع المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، بسبب ظاهرة الحروب وغيرها من الجوائح الطبيعية كانت سببا رئيسيا في تحول منظومة الغذاء لدى إنسان المغرب الوسيطي، جراء الخلل الناجم بين تزايد وتيرة الاستهلاك وتقلص موارد الإنتاج الغذائي.

الهوامش:

(1)- الحرب: عرفت الحرب في كثير من القواميس اللغوية على أنها مفهوم ارتبط بمفاهيم العنف والقوة والصراع ، وهناك تعاريف أخرى فقد اعتبرتها دائرة المعارف "بقية من بقايا تنازع الطوائف البشرية على الحياة "، في حين عرفها مارتن "على أنها صراع بين الناس" أما فون بو جسيلا فسكي فعدها "المعركة التي تشنها جماعة معينة من الرجال أو القبائل أو الأمم أو الشعوب أو الدول ضد جماعة مماثلة أو شبيهة لها "في حين يضيف لاجورجيت سمتين أساسيتين لابد أن تتوفر في شكل الصراع ليسمى حربا وهما الرغبة أو الإرادة ثم التنظيم لذلك يعرف الحرب بأنها " حالة من الصراع العنيف الذي يقوك بين جماعتين، أو عدة جما عات من أفراد منتمية إلى نفس النوع بناء على رغبتهم أو إرادتهم"/ ينظر: حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، منشورات عكاظ، 2010، ص 39-40.

(2)- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط ، 1972، ص288.

(3)- ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1972، ص36.

(4)- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت،2012، دط، ص258/ ينظر: أبي عبد الله ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تح :علي سامي النشار،ج1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1 ،2008 ، ص 131.

(5)- ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، ص25.

(6)- محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط – الدولة –المدينة – الاقتصاد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1999،1، ص267.

(7)- نفسه ، ص 266.

(8)- نفسه ، ص 267.

(9)-- حميد تيتاو، مرجع سابق ، ص 13 .

(10)- حسن محمد حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس-عصر المرابطين والموحدين- ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980 ، ص258.

(11)- حميد تيتاو، مرجع سابق، ص90-91.

(12)- نفسه، ص91-92.

(13)- نفسه، ص93.
(14)- الحسين بولقطيب، جوائح مغرب الموحدي ، منشورات الزمن ،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،2002 ، ص 88.
(15)- نفسه، ص 103-104.
(16)- عابد بن دومي، الكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة في المغرب الأوسط وأثرها في مجتمع مابين القرنيين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م) ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة معسكر، غير منشورة، 2011، ص74.
(17)- الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 283.
(18)- ابن الأزرق، بدائع الملك في طبائع الملك، ج1، ص 195.
(19)- نفسه، ص 196.
(20)-عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7، دار الفكر، بيروت، 2000، ص349-350.
(21)- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، 2012، ص 25.
(22)-سمية مزدور، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط من القرن (6-10ه/12-16م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط ،جامعة قسنطينة، غير منشورة، 2008-2009، ص22.
(23)-عبد العزيز فيلا لي ، تلمسان في العهد الزياني ،ج1، موفم للنشر ، الجزائر ، 2011،ص 28/ينظر : ابن خلدون ،ج7، ص128 .
(24)- يقول يحي ابن خلدون: "وأدار على تلمسان نطاق الحصر فأطاعته قبائل أهل الشرق كافة ، وحواضره جملة، وأمر هذا الحصار في إضافته بأهل البلد وغلاء الأسعار فيه، و موتان الناس بالجوع والأسلحة، فكانت مدة الحصار الأكبر والخطب الشديد ثماني سنين وثلاثة أشهر، وخمسة أيام ، بلغ فيها عدد موتى أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة ألف وعشرين ألفا ، وثمن صاع قمحهم إلى دينارين وربع الدينار..." /ينظر :يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج2، تح ،عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980 ، ص210.
(25)-ابن الوليد إسماعيل ا بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، مطبوعات القصر الملكي، الرباط ،1968، ص 69.
(26)- فيلا لي، ج1، ص46 . / ينظر :ابن خلدون، ج7، ص340- 341.
(27)- ابن خلدون، العبر، ج6، ص 569.
(28)- الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص229- 230.
(29)- نفسه، ص 180.

(30)- الحسن الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة :محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983 ،ج1، ص 58-59.

(31)- ابن خلدون، ج7، ص71.

(32)-- الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص 231.

(33)- ابن خلدون ، ج7،ص 241.

(34)- الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص233.

(35)- نفسه، ص233.

(36)- أبو العباس الناصري ،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة المرينية، تح :جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997، ج3 ، ص5 ./ ينظر :الذخيرة السنية، مصدر سابق، ص25.

(37)-عربية بورملة، إمارة بني توجين بالونشريس خلال القرنين 7-8ه /13-14م من خلال كتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون ، مذكرة ماجستير، جامعة معسكر، غير منشورة ، 2009-2010، ص 32.

(38)- نفسه، ص35.

(39)- عبيد بوداود، ظاهرة التصوف بالمغرب الأوسط مابين القرنيين السابع والتاسع الهجريين (ق13/15م) –دراسة في التاريخ السوسيو –ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران ، 2003، ص 158-160.

(40)- ابن الأحمر، مصدر سابق ، ص 37.

(41)- الحرب والمجتمع ، مرجع سابق ، ص 186 /ينظر: العبر، ج7، ص321 .

(42)- سمية مزدور، مرجع سابق، ص 96.

(43)- أبو العباس الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ودار الغرب الإسلامي،1981، ج6، ص153-156./ ينظر: سمية مزدور، مرجع سابق، ص 100.

(44)- الحسن الوزان، ج1، ص 217.

(45)- ابن غازي المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون تح عطا أبو ريه وسلطان بن مليح الاسمري ، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، ط1، 2007 ، ص 40.

(46)- ابن خلدون، المقدمة، ص 237.

(47)- الحرب والمجتمع، مرجع سابق، ص249.

(48)- المعيار، مصدر سابق ،ج10، ص344.

(49)- نعيمة بوكرديمي، الرحلة العلمية لعلماء تلمسان إلى فاس –خلال القرن الثامن الهجري /14م – ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، غير منشورة، سيدي بلعباس، 2010، ص32.

(50)- البغية ، مصدر سابق ،ج2، 240-241.

(51)- الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 60.

(52)- المعيار، مصدر سابق، ج8، ص402.

(53)- ابن مريم المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص 40.

(54)- الوزان، مصدر سابق،ج1، ص 81.

(55)- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، الجزائر،2008، ج2، ص 178.

(56)- سمية مزدور، مرجع سابق، ص 118.

(57)- عبد العزيز فيلا لي ، مرجع سابق ج1،، ص 253،.

(58)- نفسه، ج1، ص 254.

(59)- محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر،2007، ط1، ص 09.

(60)- العبر، مصدر سابق ،ج7، ص198.

(61)- ابن قنفد القسنطيني، انس الفقير وعز الحقير، تصحيح محمد الفاسي و اودلف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، مطبعة اكدال، الرباط، ص 149.

(62)أبو زكريا يحي المغيلي الماروني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، تح: مختار حساني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، 2009، ج1، ص 151.

(63)- ابن خلدون، العبر، ج7، 167.

(64)- سمية مزدور، مرجع سابق، ص 207.

(65)- الوزان، ج1، ص 84.

(66)- سمية مزدور، مرجع سابق، ص 242.

(67)- التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح : محمود أغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر،2011، ص 132.

(68)- ابن خلدون العبر ،ج6، ص 197-198.

(69)- نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، من القرن 4/ 8ه، تونس، المنشورات الجامعية التونسية، 1976.ص 31

(70)- البغية،ج1، ص124-125.

(71)- ابن خلدون،ج7 ،197-198.

(72)- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص222.

(73)- عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك و ذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس من القرن (6-8ه)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2008 ، ص 102.

(74)- بغية الرواد، ج2، 326.

(75)-العبر، ج7، ص 198.

(76)- إبراهيم القادري بوتشيش، ثقافة الطعام وتنوع خطابتها في زمن المجاعات : المغرب والأندلس من القرن(6-8ه /12-14م)نموذجا، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران ،العدد 7-8،(2012/2013م) ، ص 31.

(77)- نفسه، ص 31.

(78)-مصطفى نشاط، التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة ، العدد 07، ص08.

(79)- الونشريسي، المعيار، ج 1، ص 390.

(80)- نفسه ،ج6، ص44.

(81)-مصطفى نشاط، مرجع سابق، ص 08.

(82)- سمية مزدور ، مرجع سابق ، ص 209

(83)-الحسن الوزان، وصف إفريقيا،ج2 ، ص18.

(84)- ابراهيم القادري بو تشيش، مرجع سابق ، ص 37.

(85)-نفسه، ص 35.

(86)- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق محمد زنيبر وآخرون ، قسم الموحدين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985 ، ص 325-326.

(87)- ابراهيم القادري بوتشيش، مرجع سابق، ص35.

(88)- نفسه ، ص86.

(89)- ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تح :ابو العيد دودو، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص 84.

(90)- السلاوي، مرجع سابق، ج3، ص 86.

(91)- ابن الاحمر، روضة النسرين، ص 69.

(92)- العبر، ج7، ص 189.

(93)- بغية الرواد،ج1، ص 326.

(94)- جوزي دي كاسترو، جغرافية الجوع ، ترجمة زكي الرشيدي ومراجعة محمود موسى، دار الهلال، دت، ص59/ ينظر ، ابراهيم القادري بوتشيش، مرجع سابق، ص 37.